مظاهر الاقتباس الثقافي في المجتمع العراقي إبان الاحتلال الأمريكي
دراسة سوسيوانثروبولوجية في مدينة الموصل

مدرس مساعد حارث علي حسن

المستخلص:

ان لكل مجتمع ثقافة خاصة به، مهما كان شكله ونوعه وطبيعته. وهي تمثل نمط السلوك في الحياة الاجتماعية له. وتتألف من كل ما صنعه الإنسان أينما وجد، سواء أكان مادياً أم معنوياً، وترتبط بحاجات الإنسان ارتباطاً وثيقاً، وهذه الحاجات على الرغم من تنوعها واختلافها وتعددها تخضع لظاهرة التغير الذي يعد قانون الوجود. إذن مركبات الثقافة لا تبقى في حالة ثابتة Static، بل تكون بوضع متحرك Dynamic، وذلك بفعل كثير من العوامل الداخلية والخارجية، التي تجعل المجتمع يصدر ويقتبس أنماطاً ثقافية مادية ومعنوية.

المقدمة:

ارتأى الباحث إجراء هذا البحث للوقوف على أهم مظاهر التغير في ثقافة مجتمعنا العراقي ولاسيّما الموصلي على الأمد القريب، للوقوف على العناصر الثقافية الدخيلة على ثقافتنا وقيمنا إبان الاحتلال. ويتجلى بالاقتباس الثقافي على الجانبين المادي والمعنوي ولاسيّما أن مجتمعنا يشهد تحولات اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية سريعة، بفعل الانفتاح على العالم الخارجي وعلى الأصعدة كافة.

وقد تألف البحث من ثلاثة مباحث، فضلا عن المقدمة والخاتمة. أما المبحث الأول فقد تضمن الإطار المنهجي للبحث، في حين اشتمل المبحث الثاني على ماهية الاقتباس الثقافي وآليته، أما المبحث الثالث فقد تضمن ابرز مظاهر الاقتباس الثقافي في المجتمع الموصلي بجانبيه المادي والمعنوي.

وأخيرا خاتمة البحث التي أشارت إلى أهم النتائج والتوصيات، فضلاً عن قائمة المصادر وملخص البحث.

المبحث الأول

الإطار المنهجي للبحث

أولاً: تحديد مشكلة البحث:

ان من أهم خصائص الثقافة الاستمرار والتراكم والانتشار، ومهما كان طابعها فإنها تخضع لعمليات التغير. لان العنصر الثقافي عادة لا ينشأ بالمصادفة وإنما يكون نتيجة ظروف اجتماعية طبيعية، وأخرى طارئة. ولهذا دأب علماء الاجتماع والانثروبولوجيا على دراسة المجتمعات ونظمها وثقافاتها، للوقوف على طبيعة نسيجها الاجتماعي والثقافي.

واليوم يشهد مجتمعنا العراقي بعامة ومجتمع مدينة الموصل بوصفه جزءاً من نسيجه الاجتماعي والثقافي تحولات وتغيرات اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية سريعة لم يألفها من قبل، بسبب الغزو الأجنبي لهذا البلد. مما أدى إلى دخول كثير من المظاهر الاجتماعية والثقافية الدخيلة على مجتمعنا، فضلاً عن حركة الانفتاح التي يشهدها اليوم.

وبما ان الثقافة هي الموجه الأساسي والمرجعي للسلوك الفردي والجماعي فان نظرة متفحصة للوضع الثقافي يمكن ان توفر دلالات ومؤشرات مهمة في طريق تحديد أهم مظاهر الاقتباس الثقافي Cultural Borrowing، فيمكننا فرز الثقافة المقتبسة وتوضيح آثارها في مجتمعنا من خلال التغيير الاجتماعي والثقافي الذي طرأ على معظم تكويناته ونظمه الاجتماعية، منها ما انعكس على أنماطه القيمية والأخلاقية، ومنها ما انعكس على أنماطه السلوكية.

وعليه حاول البحث تحديد ماهية الاقتباس الثقافي، وما عناصره؟ وما ابرز مظاهره وملامحه في المجتمع العراقي ولاسيّما الموصلي في هذه المرحلة؟ وما مساراته وآفاقه المستقبلية؟

ثانياً: أهمية البحث:

١. الأهمية النظرية:

تأتي أهمية البحث من محاولة رسم صورة واقعية لأهم العناصر الثقافية التي دخلت إلى ثقافة مجتمعنا العراقي ولاسيّما الموصلي، في ظل الاحتلال الأجنبي، وذلك من خلال جمع طائفة من المعلومات والحقائق التي يمكن ان تعد مؤشرات للعناصر الثقافية الدخيلة على ثقافتنا العربية

الإسلامية، ولاسيما في ظروف الاحتلال، وما يعانيه المجتمع من حالة عدم الاستقرار التي تسود بناءَه الاجتماعي، وما تشكله من تهديد وتحدٍ لوحدة نسيجه الثقافي والاجتماعي.

من جهة أخرى فان البحث يوضح من خلال عرضه لمجموعة من الحقائق الواقعية انه ينبغي على أفراد المجتمع الاستفادة من التطورات الشاملة في المجال التقني لمسايرة المجتمعات الأخرى ومواجهة تحديات الانفتاح العالمي الجديد. وذلك من خلال اقتباس بعض العناصر الثقافية من اجل توظيفها توظيفاً أكثر ايجابية في الحياة الاجتماعية اليومية، فالوصول إلى تقليص الفجوة نسبياً بيننا وبين المجتمعات التي سبقتنا في هذا المجال.

٢. الأهمية التطبيقية:

أما الأهمية التطبيقية للبحث، فإنه يمكن ان يكون إضافة إلى ميدان مهم من ميادين الانثروبولوجيا الثقافية، فضلاً عن الأهمية العلمية للبحث التي تتجلى في التصدي لظاهرة "ثقافية خطيرة" تلك هي "ظاهرة الاقتباس الثقافي" ولتحديد مساراتها الايجابية منها والسلبية.

ثالثاً: أهداف البحث:

تتجلى الأهداف في الإجابة على التساؤلات الآتية:

١. معرفة ماهية ظاهرة الاقتباس الثقافي وآليته في المجتمع الموصلي بعد الاحتلال.

٢. ما أبرز مظاهر الاقتباس الثقافي في مدينة الموصل على المستوى المادي والمعنوي؟

رابعاً: منهج البحث:

ان محاولة دراسة مظاهر الاقتباس الثقافي وفهمها فهماً شمولياً، تقتضي الاستعانة بمنهجية علمية متكاملة. فقد اقتضت الحاجة العلمية في البحث الاستعانة بآلية منهجية قوامها المزاوجة بين منظوري علم الاجتماع والانثروبولوجيا في إطار الاتجاه السوسيوانثروبولوجي في الإطار الثقافي، وكذلك الاعتماد على منطلقات المدرسة الانتشارية Diffusionكمدخل نظري للبحث. كما تمت الاستعانة بأدوات جمع المعلومات كالمقابلة Interview والملاحظة Observation، فضلاً عن الملاحظة بالمشاركة Participant Observer بوصف الباحث عضواً في المجتمع المدروس. وهذا ما وفر للباحث مساحة واسعة في جمع المعلومات واشتقاقها من مختلف المصادر النظرية والميدانية، للوقوف على طبيعة هذه الظاهرة.

خامساً: تحديد المفاهيم العلمية:

ان السياق المنهجي والعلمي يحتم علينا ان نبين عدداً من المفهومات التي يرتكز عليها البحث، لإبراز معانيها ودلالاتها الاجتماعية والانثروبولوجية. لذا سنشير إليها بإيجاز خشية التكرار والإطالة، وذلك بسبب كثرة ما كتب عنها في أبحاث ودراسات في مجال علم الاجتماع والانثروبولوجيا. وفي هذا المحور سنوضح مفهوم الثقافة Culture والانتشار Diffusion والانتقال الثقافي Diffusionism والاقتباس الثقافي Culture Borrowing.

أولاً: الثقافة Culture

ويعني: مجموعاً (من العناصر)، له علاقة بطرائق التفكير والشعور والسلوك، وهذه الطرائق صيغت في قواعد واضحة نوعا ما والتي – كون جمع من الأشخاص قد اكتسبها وتعلمها وشارك فيها– تستخدم بصورة موضوعية ورمزية في آن معاً من اجل تكوين هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصة ومميزة[١].

والتعريف الإجرائي هو "مجموع العناصر المادية والمعنوية التي يكتسبها الفرد في المجتمع بوصفه عضواً فيه ".

ثانياً: الانتشار Diffusion

ويعني انتقال أدوات أو تطبيقات أو أفكار معينة من مجتمع إلى آخر، إما عن طريق التجارة أو عن طريق الاتصال المنظم أو العرضي[٢].

أما تعريفنا الإجرائي فهو "انتقال العناصر الثقافية المادية والمعنوية عن طريق عدة عوامل منها الاحتلال العسكري أو الهجرة أو التجارة أو وسائل الاتصال".

ثالثاً: الانتقال الثقافي Diffusionism

وهي تلك النظرية الانثروبولوجية التي تبين أهمية الانتشار في نمو الثقافة البشرية، وتؤكد قدرة الاختراعات الجديدة وأهمية الاستعارة المستمرة للسمات الثقافية في تاريخ الإنسان وان التشابه

---

[١] روشيه، غي، مدخل إلى علم الاجتماع العام، تعريب مصطفى دندشلي، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص١٣٧.

[٢] كلاكهون، كلايد، الإنسان في المرآة، ترجمة د.شاكر مصطفى سليم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد – نيويورك، ١٩٤٩، ص١٤٤.

الموجود في الثقافات المختلفة يرجع إلى استعارة هذه السمات لا إلى ظهور اختراعات مستقلة بذاتها في الثقافات الأخرى[١].

وكان التعريف الإجرائي هو "تلك النظرية الانثربولوجية التي تؤكد انتشار العناصر الثقافية المادية والمعنوية وان التشابه بين الثقافات يعود إلى الاقتباس وليس الاختراع".

رابعاً: الاقتباس الثقافي Cultural Borrowing

وهو اقتباس حضارة ما سمات أو مركبات حضارية معينة من حضارة أخرى، عن طريق الاتصال الحضاري أو بتأثير القادة والرؤساء. وكذلك يعني المصطلح معنى الانتشار Diffusion وبخاصة من جهة المتسلم لعنصر أو المركب الحضاري المنتشر[٢]. وان الاقتباس الثقافي يعني عملية استخدام أفراد المجتمع لعنصر ثقافي قادم من منطقة جغرافية معينة سواء أكان مادياً أم معنوياً. وتشمل جميع النظم والأنساق، وما يرافقها من ردود أفعال سواء بالقبول أو الرفض، فضلاً عن المدة الزمنية التي يستمر فيها بقاء العنصر الثقافي داخل المجتمع المقتبس له، فضلا عن كيفية انتشاره واقتباسه والاحتفاظ به أو رفضه.

أما تعريفنا الإجرائي فهو " عملية ثقافية يتم بموجبها انتقال بعض عناصر ورموز ثقافية من مجتمع إلى آخر، سواء أكانت مادية أم معنوية، ايجابية أم سلبية، واستخدامها في الحياة الاجتماعية اليومية". وحصراً نعني به "السمات والعناصر الثقافية التي جلبها المحتل إلى مجتمعنا، أو نتجت عنه، وقيام شرائح من المجتمع باستخدامها سلباً أو إيجابا".

---

[٣] بدوي، احمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتب لبنان، بيروت، ١٩٧٧، ص١٠٩.

[١] سليم، شاكر مصطفى، قاموس الانثروبولوجيا، جامعة الكويت، ١٩٨١، ص٢٢٥.

المبحث الثاني
الاقتباس الثقافي (الماهية والآلية)

أولاً: ماهية الاقتباس الثقافي:

لمحة عن انتشار الثقافة....

لكل مجتمع ثقافة تحدد طراز عيشه وأسلوب حياته في جوانب الحياة المختلفة، وتتكون من انجازاته وإبداعاته المادية والمعنوية. وتتألف من كل ما صنعه الإنسان أينما وجد، وتنتقل عبر الأجيال من خلال التنشئة الاجتماعية Socialization ووسائل الاتصال Mass Media. ويرى (شابيرو) أهمية الثقافة في قوله "ان الثقافة مثل الهواء الذي نستنشقه، نسلم بوجوده تسليماً ولكننا نكاد لا نشعر به"[١]. وتفسير ذلك ان الثقافة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً مع حاجات الإنسان الذي يسعى لإشباعها، كحاجته إلى الأمن والغذاء والكساء والجنس. وتؤدي الثقافة دوراً كبيراً في تنظيمها داخل جماعته ومجتمعه، لان جميع الثقافات تهدف إلى إشباعها على الرغم من اختلافها وتعددها وتنوعها وتغيرها، وبالتالي فان عناصرها قد تكون متشابهة في العديد من المجتمعات على وفقِ وحدة الهدف، وهو إشباع تلك الحاجات.

اذن الثقافة بكل تنوعاتها حصيلة لنظام البنى الاجتماعية السائدة، فهي انعكاس للواقع الاجتماعي القائم[٢]. أي أنها تعبر عن نمط المجتمع وطبيعة نظمه، وترسم صورة لطراز حياته الاجتماعية والثقافية اليومية، وما تحويه من عناصر مادية ومعنوية يستخدمها أفراده.

وتتميز الثقافة بأنها قابلة للتغير، وذلك بإدخال عناصر جديدة وحذف عناصر أخرى واستبعادها. وهذه العملية تجري داخل المجتمع من خلال عملية الانتشار Diffusion وآلياته التي تعد أداة نظرية عملية للتعامل مع بعض الظواهر المنتقاة في مجال التغير الاجتماعي عبر العصور التاريخية المتعاقبة[٣]. وترى المدرسة الانتشارية بان الناس ليسوا جميعا مبتكرين بالفطرة وإنهم يميلون إلى الاستعارة[٤].

---

[١] الساعاتي، سامية، الثقافة والشخصية، مركز الكتب الثقافية، ط٢، مصر، ١٩٨٣، ص٢٩.

[٢] النجار، باقر سلمان، الثقافة وتحدياتها في الخليج العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٨٤، ٢٠٠٢، ص١٢٦.

[٣] النوري، قيس، مدارس الانثروبولوجيا، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩١، ص٢٥٧.

[٤] مصطفى، فاروق محمد، الانثروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص١٣٢.

اذن العناصر الثقافية منها ما هو مكتسب من داخل المجتمع من الجماعات المرجعية والاختراعات والاكتشافات، وأيضا من خارجه عن طريق الاقتباس، بسبب انتشار عناصر الثقافة وانتقالها من المجتمعات الأخرى.

ولعل ابرز ما جاءت به المدرسة الانتشارية اتجاه الأقاليم الثقافية Culture Area وهي مناطق جغرافية محددة تشخص بناءً على اشتراكها في بعض العناصر الثقافية التي انتقلت إليها من مناطقها التي نشأت فيها أصلا عن طريق الانتشار[١]. وعكف على هذا المذهب علماء (المدرسة الحضارية–التاريخية) وتبنوا ما أسموه بالمهد الحضاري Kulkur Kreis، وهو ان السمات والمركبات الحضارية (Culture trait) (Culture complex) تنتشر من مراكز محددة في العالم (مهود حضارية) إلى بقية أرجائه[٢]. مثل حضارة وادي الرافدين في العراق وحضارة وادي النيل في مصر وفي اليونان والصين. واستمرت هذه المدرسة في حقبة العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين باتخاذها مفهوم الأقاليم الثقافية معياراً في تحديد التشابه والاختلاف ورسمها بين الثقافات. فقد اعتمد العالم (ويسلر) على مبدأ المركز الثقافي Culture Center، الذي افترض خروج العناصر الأصلية إلى الخارج، فضلاً عن قانون الانتشار Law of Diffusion الذي يعني ان السمات الثقافية تنتشر في جميع الاتجاهات المحيطة بالإقليم الصادرة عنه[٣]. في حين أكدت مدارس انتشارية أخرى كالألمانية النمساوية وجود دائرة ثقافية واحدة، تبقى عناصرها بقوتها وتأثيرها وجوهرها الأصلي بالقرب من المركز وتفقد قوتها كلما ابتعدت عنه وذلك بالاندماج مع عناصر جديدة[٤]. أما المدرسة الأمريكية فقد أكدت ان الملامح المميزة لثقافة ما قد وجدت أولا وقبل كل شيء في مركز ثقافي جغرافي محدد ثم انتقلت إلى مناطق أخرى[٥]. وعموما فان جميع المذاهب الانتشارية تؤكد انتقال الأنماط الثقافية من موطنها الأصلي وتنتشر في أكثر من اتجاه عن طريق وسائل عدة إلى مجتمعات عديدة. وان العنصر يضعف شكله ومضمونه كلما ابتعد عن موطنه الأصلي.

الاقتباس الثقافي Cultural Borrowing

---

[١] النوري، قيس، المصدر السابق، ص٢٥٧.

[٢] سليم، شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص٢٦٠.

[٣] النوري، قيس، المصدر السابق، ص٢٦٠.

[٤] مصطفى، فاروق محمد، المصدر السابق، ص١٢٣.

[٥] المصدر نفسه، ص١٢٣.

ان الاقتباس الثقافي يعتمد على عوامل تتعلق بخاصية العنصر، سواء أكان العنصرُ شكله أم مضمونه، على الرغم من ان الشكل يكون أكثر تقبلاً من أفراد المجتمع المقتبس، وقد يحتفظ بالشكل الخارجي للخاصية الحضارية المستعارة، ولكنها نفسها تعطي مجموعة معانٍ مختلفة[١].

وتعد الاستعارة الثقافية Cultural Borrowing أكثر أشكال التجديد شيوعا وأهمية ذلك لان الغالبية العظمى من عناصر أية ثقافة هي في الحقيقة محصلة عملية الاستعارة[٢]. فليس هناك مدنية – حتى إذا استمرت في مكان واحد تبقى بلا تغير عبر الزمان[٣]. ومثال ما حدث في مدن العراق ومصر والصين واليونان من التغيرات التي حصلت في الأنماط الثقافية فيها من إضافات وحذف في طرازها الثقافي. فإذا ضمن مجتمع ما عنصراً جديداً في ثقافته، فانه سيتقبل ذلك العنصر بإرادته، وهذا التقبل بدوره يتحكم به مجموعة من العوامل المتغيرة. والعامل الوحيد هو ان مثل هذه العناصر ينظر إليها كما تبدو في قيمتها الاسمية، فلا يستطيع مجتمع ما ان يدرك من المركب الكلي للثقافة الأخرى، إلا تلك الأجزاء التي يمكن نقلها بشكل واضح ومباشر[٤]. وهي تشكل إضافة ثقافية Culture Deposit "أية إضافة إلى أساس الحضارة وتعني كل الاستعارات الحضارية التي تتحقق عن طريقة الانتشار"[٥]. وهذه تضاف إلى الثقافة الكلية في المجتمع المستعير، وعدم الاهتمام بشكله ومضمونه بفعل ظروف معينة جعلت الاقتباس الثقافي مسالة طبيعية والاحتفاظ بالعنصر المستعار ولو لمدة معينة.

ثانياً: آلية الاقتباس الثقافي

مراحل الاقتباس الثقافي:

ان كل ظاهرة اجتماعية تحدث في المجتمع لها آليات ووسائل لانتقالها ودخولها في نظم المجتمع. تبدأ من نشأتها وانتشارها أو استبعادها وحذفها من المركب الكلي الثقافي للمجتمع. ولا يمكننا التوصل إلى فهم حقيقي للقوى المحركة للانتشار إلا بملاحظة كيف تجري عملية الانتشار في الواقع، وكذلك دراسة الانتشار الحالي لأي عنصر ثقافي جديد دراسة وافية والعوامل التي أدت إلى هذا الانتشار وردود الفعل التي استثارها العنصر الجديد في المجتمعات المختلفة والتكيف الذي تسبب

---

[١] كلاكهون، كلايد، المصدر السابق، ص١٠٤.

[٢] المصدر نفسه، ص١٠٤.

[٣] شابيرو، هاري، نظرات في الثقافة، ترجمة د.محمد العريان، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة –نيويورك، ١٩٦١، ص١٥٩.

[٤] لنتون، رالف، دراسة الإنسان، ترجمة عبد الملك الناشف، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت– نيويورك، ١٩٦٤، ص٤٤٩.

[٤] سليم، شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص٢٣٣.

فيه العنصر الجديد في الثقافات المختلفة[١]. وهذا يقترب من تشبيه (دكسن Dekson) انتشار الحضارة بانتشار النار في الغابة[٢].

لكي نتمكن من معرفة الآلية التي يتم فيها اقتباس عناصر محددة دون أخرى، يجب ان نقف عند اقتباس شكل العنصر من مضمونه أو العكس، وما هو شكله، مستمر أم متقطع، وما نوع الاتصال ووسائله ودورها في تسريع الانتشار ومن ثم الاقتباس؟ ومن هذا يمكن ان نصل إلى تحديد اقتباس نوع معين من العناصر الثقافية دون غيرها. وتحديد مدى استمرارية الأفراد في التمسك بهذه العناصر، فضلا عن طبيعة الظروف التي تعيقه.

ان آلية الانتشار الثقافي تمر من خلال مراحل مهمة ومتداخلة بعضها مع البعض الآخر، وهذه تحدد العناصر الثقافية التي يتم اقتباسها أو رفضها، وهي – عرض العنصر أو العناصر الثقافية على المجتمع، قبول المجتمع، دمج هذا العنصر أو هذه العناصر في الثقافة القائمة منذ زمن بعيد[٣]. أي قبول العنصر كما هو، أو رفضه أو قبوله بعد تحويره.

ان انتقال الأنماط الثقافية من جماعة إلى أخرى ومن وسط ثقافي إلى آخر، سواء أكان على شكل أدوات أم عادات أم أفكار يكون بفعل عوامل وظروف معينة، منها الاجتماعي والتجاري والعسكري والثقافي. وهذه مجتمعة تؤثر وتحدد اتجاه الانتشار ومساره ونوعيته، ان كان مستمراً أو متقطعاً. فضلاً عن ذلك هناك عوامل تساعد على تسهيل عملية الاقتباس الثقافي بين المجتمعات المختلفة، وأخرى التي تعيق الاستعارة. تلك التي تتعلق بنوعية المركبات الثقافية التي تنتقل من الخصائص الحضارية التي سبق ان تكونت وانصهرت بفعل عوامل تاريخية. وفيما إذا كان هذا الطراز القادم إلى المجتمع يتم اقتباسه ام يجتازه إلى آخر، بفعل رفض المجتمع الأول له.

تعتمد الاستعارة الثقافية Cultural Borrowing على الاحتكاك والاتصال ولا تتحقق في حالة العزلة الكاملة للمجتمع، فضلا عن ملائمة العناصر الثقافية المستعارة لكثافة التفاعل الاجتماعي واستمراره بين حامليها إلا ان الاحتكاك الثقافي يعد العامل الأكثر فاعلية[٤].

وان ميكانيزمات انتشار الثقافة متعددة و متنوعة جعلت الاتصال الفكري والروحي بين المجتمعات مباشراً وغير مباشر، مما أدى إلى تقريب المسافة بين الاختلاف في الطراز الثقافي واختزال الكثير من الوقت والجهد للاقتباس الثقافي Cultural Borrowing بين أفراد الشعوب

---

[١] لنتون، رالف، المصدر السابق، ص٤٣٢.

[٢] كلاكهون، كلايد، المصدر السابق، ص١٠٥.

[٣] لنتون، رالف، المصدر السابق، ص٤٤٠.

[٤] الخشاب، احمد، دراسات انثربولوجية، دار المعارف في مصر، ١٩٧١، ص١١٥.

المختلفة. وبعد الثورة المعلوماتية التي اجتاحت اغلب المجتمعات فان العزلة قد أصبحت قليلة نسبياً، لان العالم اقترب ان يصبح قرية صغيرة من خلال انتشار وسائل الاتصال والنقل، وما حدث في مجتمعنا العراقي من احتكاك مع الثقافات المحيطة– والبعيدة على حد سواء كان بسبب دخول وسائل الاتصال إلى المجتمع.

الاقتباس الثقافي والتنظيم الاجتماعي:

ان التنظيم الاجتماعي لأي مجتمع هو حصيلة تراكم تاريخي حضاري، أتى من تجارب ومواقف وخبرات انتقلت عبر الأجيال. وان أي تغيير في هذا التنظيم يواجه صعوبات كثيرة ومختلفة لأنها تتعلق بالجانب المعنوي والفكري والإيديولوجي، وليس الجانب المادي الذي يكون تغيير عناصره أكثر سهولة ويسراً من الجانب الاجتماعي والثقافي لارتباطه بالقيم والعادات والتقاليد والأخلاق والسلوكيات ونمط التنشئة الاجتماعية، والذي يؤدي إلى خلق اتجاهات معينة لدى الأفراد نحو الثقافات الأخرى. وهذه الاتجاهات تعد أكثر صعوبة من حيث تغيرها. وتحتاج وقتا طويلا وأحداثا كبيرة تصل إلى أشبه ما تكون بزلزال اجتماعي يهز بناء المجتمع ونظمه لأنها ترتبط بالقيم. فقد يكون انتشار العناصر الثقافية في المجتمع نتيجة لثورة تغير من نظام الحكم ومن التنظيم الاجتماعي[١].وعندما انهارت السلطة في الدولة بعد الغزو الأجنبي، انعكس هذا الانهيار على باقي المؤسسات وغابت القيود والضوابط التي كانت تمارسها الحكومة على دخول بعض العناصر الثقافية المادية والمعنوية، كالتقانة والمنتجات غير الخاضعة لجهاز السيطرة النوعية لما لها من آثار سلبية على المجتمع، ولاسيما القادمة من الدول ذات الإيديولوجية المعادية لمجتمعنا تاريخيا، لما تحمله من مشاريع تفكيك بنية المجتمع وتفتيته مثل بعض دول الجوار والكيان الصهيوني. وان العناصر المستعارة من ثقافات أخرى، أسهل في اعتناقها أو الأخذ بها في أثناء الأزمات وفي أوقات التفكك الاجتماعي[٢]. واعتقد ان أزمة مجتمعنا العراقي في الظرف الراهن كفيلة بجعل الاقتباس الثقافي Cultural Borrowing أكثر يسراً وسهولة لان النظم الاجتماعية تعاني من خلل كبير يؤثر في نمط الثقافة العامة للمجتمع والثقافات الفرعيةSubculture فيه، فضلاً عن ضعف أداء مؤسسات الدولة لوظيفتها بسبب ما خلفه الاحتلال من تدمير للبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وان الجزيئات الثقافية المادية أسرع في انتشارها من الأفكار والإيديولوجيات[٣]. وهذا ما حصل مع قدوم الاحتلال حيث سبقت العناصر الثقافية المادية بدخولها العناصر الثقافية المعنوية إلى المجتمع.

---

[١] غيث، محمد عاطف، علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص٢٨٤.

[٢] غيث، محمد عاطف، المصدر السابق، ص٢٨٣.

[٣] بيومي، محمد احمد، الانثربولوجيا الثقافية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص١١٧.

المبحث الثالث

مظاهر الاقتباس الثقافي في المجتمع الموصلي

ان ما حدث في مجتمعنا العراقي بعد الغزو الأجنبي، ان عرضت عناصر ثقافية عديدة بفعل الانفتاح على الخارج وما حمله المحتل والعائدون معه من المهاجرين من أفكار، ووسائل الاتصال، ورافق هذا قبول بعض فئات من المجتمع لمجموعة من العناصر، ومنها الفئة التي رحبت بالتغيير بأشكاله وأساليبه كافة. ومازالت تجري محاولات دمج هذه العناصر المقبولة في ثقافتنا التي تمثل تراكماً تاريخياً حضارياً يمتد عمقه لآلاف السنين. وخير مثال على العناصر المقتبسة الانترنت وماله من انعكاسات وآثار اجتماعية خطيرة فيما إذا استخدم بطريقة سلبية، ويرافق ذلك ضعف السيطرة والرقابة من رب الأسرة على بقية الأفراد في البيت. لأننا نعلم ان هذه الثقافة سلاح ذو حدين، ويرتبط استخدامها بمدى ايجابية توظيفها لخدمة الفرد والمجتمع في إطار القيم والأخلاق الأصيلة لثقافتنا.

عندما تحتك ثقافتان مختلفتان يميل النمط الأبسط والأكثر ضرورية إلى ان يمر بسرعة اكبر[١]. وهذا ما لمسناه في واقع مجتمعنا عندما دخلت الأنماط اليسيرة، منها المادية كالأجهزة الكهربائية والالكترونية ووسائط النقل وغيرها، فكانت أكثر تقبلاً ورغبة وذلك لحاجة المجتمع إليها بسبب افتقاده لكثير منها في المرحلة السابقة. وقد رأينا أنواعا مختلفة من الأنماط الثقافية بعد الاحتلال سواء أكانت العناصر الأجنبية ناقلة لها أم مُمَرِّرة لها، إنها مستمرة وتتزايد كماً ونوعاً كلما طالت مدة بقاء المحتل في مجتمعنا. وأمثلة ذلك كثيرة فيها إرسال الصور والرسائل القصيرة ذات المضمون السلبي من خلال الهاتف النقال فيما بين الأفراد خصوصا المراهقين والشباب، الذين لم يوظفوا هذا العنصر الثقافي توظيفاً ايجابياً نسبياً يفي بالحاجة التي تفيد الفرد والمجتمع، وكذلك فتح بعض القنوات المغلقة التي تبث البرامج التي لا تتناسب مع قيمنا وتقاليدنا، منها الأجنبية والعربية ذات البرامج التي تسير وفق قيم الثقافة الغربية مما يؤدي إلى زيادة فرص الانحراف في السلوك عن الأخلاق والمثل التي ورثناها عن الأجيال السابقة لما تتضمنه من ثقافة خالية من العناصر الدخيلة عليها.

وبذلك فالعناصر المادية كالهاتف النقال والستلايت والسيارات والأجهزة المنزلية، سبقت بدخولها الأفكار والعادات ومنها التحزب والاتجاهات الطائفية والتجزيئية. فمن ابرز مظاهر الاقتباس

[١] الخشاب، احمد، المصدر السابق، ص١١٧.

الثقافي، دخول هذه الأدوات إلى المنازل والأسر قبل دخول مفاهيم حرية الرأي والتعبير وحقوق المرأة والتصويت والانتخابات والفيدرالية، والكثير من الشعارات التي جاء بها الاحتلال. ويمكن ان يعتمد قبول العناصر الجديدة على مدى نفع هذه العناصر وقابليتها على الانسجام، أي مدى الانتفاع منها ومدى السهولة التي يمكن بها ان تنسجم مع النسق الثقافي القائم[١]. ويتضح ذلك في قبول فئة من المجتمع لبعض العناصر المادية لافتقادها إليها في الحياة اليومية قبل الاحتلال، كالستلايت والهاتف النقال والسيارات والالكترونيات وغيرها. وفي الوقت نفسه تم رفض العناصر الأخرى التي ثبت عدم فائدتها، بسبب دورها في تفكيك النسيج الاجتماعي والثقافي ومنها المخدرات.

ثقافة المجتمع الموصلي:

ان مدينة الموصل تعد حاضرة عربية عرفت بعراقتها وأصالتها، تتميز بقوة نسيجها الاجتماعي والثقافي على الرغم من تباين التركيب الاجتماعي فيها. وذلك لان السمة السائدة في هذا هي وحدة الشعور بالمواطنة والتعايش الاجتماعي. وان الأسرة الموصلية شديدة التمسك بالتقاليد الموروثة (أسرة نمطية) عن الأجداد[٢]. كذلك فان تأثير العديد من العوامل، منها الجغرافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، رسمت عليها صورة من المدينة الحضرية نوعا ما. ومن خصائص المجتمع الموصلي، الفردية وحب العمل والتجنبية والانسحابية والمادية[٣]. ويعد علماء الاجتماع ان المجتمع الأكثر تنوعا هو الأكثر تقدماً، فالتنوع مصدر ثقافي وحضاري واقتصادي واتصالي[٤].

وفي هذه المرحلة حصلت العديد من الظواهر داخل المجتمع الموصلي، بشكل لم يخضع للرقابة والضبط الاجتماعي ومنها ظاهرة الاقتباس الثقافي. وكما أسلفنا فان هذه الظاهرة تنتشر في أي مجتمع، بفعل عوامل انتشار وانتقال عناصر ثقافية عن طريق وسائل الاتصال والاحتلال والتجارة والهجرة. وأمثلة ذلك الأزياء بأشكالها وألوانها وشكل الأحذية وتسريحات الشعر الجديدة وسلوكيات الأفراد من الاستماع إلى نغمات موسيقية من الهاتف النقال بصوت مرتفع في الشارع والأسواق وداخل الحرم الجامعي وفي أروقة الكليات والأقسام العلمية وقاعات الدراسة، وطرائق تفتيش

---

[١] لنتون، رالف، المصدر السابق، ص٤٥٠.

[٢] الصوفي، احمد، خطط الموصل، ج٢، مطبعة الاتحاد الحديثة، الموصل، ١٩٥٣، ص٢٧.

[٣] الخالدي، خليل محمد، خصائص المجتمع الموصلي، مركز دراسات الموصل، جامعة الموصل، ٢٠٠٦، ص٨١.

[٤] معتوق، فرديدريك، المصدر السابق، ص١١٦.

القوى الأمنية للأفراد في الشارع وتقليدهم للقوات الأجنبية، مثل وضعهم على وجوههم على الأرض أو استدارتهم نحو الحائط أو السياج مع وضع الأكياس على وجوههم.

أولا: مظاهر الاقتباس الثقافي في الجانب المادي:

يعتقد علماء الاجتماع والانثروبولوجيا والاقتصاد، ان الثقافة المادية والحضارية والاقتصادية أكثر ذيوعا وانتشارا من الثقافة غير المادية أو الثقافة المرتكزة على الإيديولوجية العقائدية[١]. وان الأفراد اقل مقاومة للتغير في العناصر المادية للثقافة وأكثر قبولا لها وإقبالا عليها، على عكس العناصر المعنوية، إذ ان من الملاحظ والثابت أنهم يقاومون هذا التغير ويعارضونه معارضة شديدة[٢]. لان الناس عادة لا يقبلون التغير وترك القديم إلا إذا ظهرت لهم منافع ومحاسن العنصر الجديد، وامتيازه وتفوقه على القديم، ويبدو بوضوح من العناصر المادية أكثر من المعنوية، لان العناصر المادية محسوسة وملموسة[٣]. والأدوات المادية عموماً أسرع في انتشارها من الأفكار التي يتطلب انتشارها تغيرات أقوى في طراز القيم الموجودة في المجتمع المستعير[٤]. ويظهر هذا في انتشار عناصر الثقافة المادية انتشاراً كبيراً في المجتمع قبل دخول الأفكار والأنماط السلوكية والعقائدية، وفي الكم الهائل من الأدوات التي لم نشاهدها قبل الاحتلال في مختلف المجالات الصناعية والتجارية والزراعية والمنزلية. فقد غرقت الأسواق والمحلات التجارية بأنواع كثيرة من الأجهزة الكهربائية والالكترونية والأزياء والمواد الغذائية والكمالية المستوردة وبشكل غير طبيعي وغير معهود كماً لا نوعاً، وكأن المجتمع أمسى وعاءاً فارغاً المطلوب ملؤه بأي شيء مربح مادياً. وهذه الأشياء في الوقت نفسه غير خاضعة لضوابط رسمية ورقابة الدولة. وهو ما جعل هذه الأدوات تزداد كماً لا نوعاً لان الهدف هو الربح الفردي، واستغلال غياب أداء المؤسسات الحكومية أو ضعفها في السيطرة على الحدود سيطرة كاملة، ولاسيما بعد حل الجيش العراقي وتسريح عناصره، ومنهم حرس الحدود مما جعل الكثير من المجتمعات تصدر عناصرها الثقافية إلى مجتمعنا العراقي، فضلاً عن تسويق منتجاتها إليه، فإنها أخذت تؤثر في النظام السياسي والاقتصادي بقصد نهب ثرواته وإنهاك اقتصاده. فضلاً عن الأهداف الاجتماعية التي تتجلى في تفكيكه وتفتيت وحدته وتمزيق نسيجه

---

[١] الخشاب، احمد، المصدر السابق، ص٧٤-٧٥.

[٢] الساعاتي، سامية، المصدر السابق، ص٨٣.

[٣] المصدر نفسه، ص٨٢.

[٤] كلاكهون، كلايد، المصدر السابق، ص١٠٤.

الاجتماعي والثقافي تحت شعارات براقة، كالحرية والتحرير وحقوق الإنسان والإعمار، وثبتت حقيقته عكس ذلك، مما أدى إلى تفكك آلاف الأسر وانتشار البطالة والفاقة.

ان دخول العناصر المادية بهذا الشكل أدى إلى انعكاسات اجتماعية وثقافية في نظم المجتمع، لان الحضارة لها جانبان مادي ومعنوي، فان أي تغير يحصل في احدهما يؤثر في الآخر سلباً أو إيجابا.

أولاً: التقنيات:

ولعل أهمها وأكثرها أجهزة الستلايت والهاتف النقال والحاسوب. ان شعور الفرد بالانقطاع عن العالم الخارجي والعزلة الاجتماعية والثقافية في المرحلة التي سبقت الاحتلال بسبب الحصار الاقتصادي في التسعينات من القرن الماضي، والقيود التي كانت تفرضها السلطة الحاكمة حينئذ على وسائل الإعلام، بمنع دخول وسائل الاتصال بأنواعها إلى المجتمع، جعل الحصول على هذه الوسائل واستخدامها ضرباً من المستحيل، فعندما دخلت هذه العناصر الثقافية إلى المجتمع تسارعت شرائح مختلفة وبأعداد كبيرة لشرائها. حتى وصلت هذه العناصر إلى غالبية الأسر الموصلية، بل إلى أفرادها كافة. حيث أصبح لكل فرد هاتف نقال أو حاسوب أو ستلايت خاص به.

وبالتأكيد لا يمكن فصل الشباب عن موجات "العصرية" في العالم، حيث يقرا عنها أو يشاهدها "في الفضائيات أو شبكة المعلومات – الانترنت". وتدخل العناصر الثقافية عن طريق أفراد باعتناقهم المستمر لها واستخداماتهم إياها، فتأخذ صفة العمومية تدريجيا عن طريق التقليد أولا، ثم الاقتناع ثانياً، وفي الغالب يقبل الشباب على اقتناء هذه العناصر ولاسيّما إذا كانوا غير مقيدين بمصالح وأفكار تقليدية يخافون عليها[١]. وهو ما نراه في كل مكان من المدينة سواء داخل المنزل أم خارجه، في الشارع أو دور العلم أو الأسواق أو المؤسسات، من تزايد اقتباس هذه العناصر المادية، وكأن الضوابط الاجتماعية المحيطة بالفرد بدأت تضعف، فأخذ الناس يقبلون على هذه العناصر واقتباسها، تقليداً ومحاكاة، لا لأهميتها أو لفائدتها في المنزل.

البث الفضائي Satellite:

ومن مظاهر الاقتباس الثقافي المادي، دخول جهاز الستلايت إلى المنزل أولا، ثم إلى غرف الأفراد ثانياً، وأصبح لكل فرد جهازه الخاص به، والذي يمكن ان يؤدي إلى آثار خطيرة تنعكس على

[١] غيث، محمد عاطف، المصدر السابق، ص٢٨٥.

بنية الأسرة ونسيجها الاجتماعي، إذا صاحب دخوله سوء الاستخدام سوء التوظيف العلمي والأخلاقي. فبعد ان كانت الأسرة تجتمع في غرفة واحدة وعلى مائدة واحدة تستمع إلى حديث رب الأسرة في أثناء جلساتهم مساءً، وفي أوقات تناول وجبات الطعام، وما يدور بينهم من حديث نصح وإرشاد وتهذيب للسلوكيات، تجسد وظيفة النسق الأسري. أضحت الآن مشتتة على غرف أفرادها وأمست في شبه عزلة وفرقة داخل المنزل. علاوة على اكتساب واقتباس ما تبثه القنوات الفضائية من برامج تحوي أنماطاً ثقافية بعيدة كل البعد عن ثقافتنا العربية الإسلامية. وإذا ما علمنا بان الأفراد لهم اتجاهات مختلفة عن برامج اغلب الفضائيات. وان أي عنصر يرد من الجهة التي تكون موضع إعجاب الناس يحظى على اقل تقدير باهتمام حيوي[١]. وكذلك فان العنصر الذي يرد من مصدر يستخف به الناس لن يحظى بالقبول إلا إذا كان ينطوي على فوائد ملحوظة للمجتمع وللمستقبل[٢]. ونرى ذلك في ان أفراد المجتمع مختلفون في نوعية اختيارهم للعناصر المقتبسة، ولا يتساوون في درجة تقبل العناصر الثقافية التي تصلهم من الفضائيات واقتباسها. كل حسب اتجاهاته وميوله ورغباته وحاجاته، والتي تتقاطع أحيانا بعضها مع البعض الآخر، لتؤدي إلى خلافات فردية في مسالة اختيار القناة الفضائية المطلوبة، وينتج عنها بقاء أفراد الأسرة وقتاً طويلاً في غرفهم في تشرذم وتمزق وضعف العلاقات الاجتماعيةSocial relationship فيما بينهم.

ان انعدام مجالات التسلية والترفيه للشباب، بسبب ما خلفه الاحتلال من تدمير المؤسسات الرياضية والاجتماعية، وكذلك القيود الحادة أمام اختلاط الجنسين، وذلك لصرامة النظام الاجتماعي السائد في المجتمع، جعل من (الستلايت) الملاذ والمتنفس لإشباع الحاجات النفسية والبيولوجية والاجتماعية، وتحقيق رغباتهم وفق قناعتهم وتفكيرهم، وبالتأكيد سيرافق ذلك آثار سلبية وايجابية لضعف الرقابة على هؤلاء الشباب بسبب التغيير الثقافي والاجتماعي السريع في المجتمع، فضلا عن استقلالهم وانفرادهم في حجرهم الخاصة بهم.

الهاتف النقال Mobile:

أما بالنسبة للهاتف النقال، فانه لايقل أهمية عن غيره من الأدوات والعناصر الثقافية التي اقتبسها الأفراد. فبعد ان كان هناك خط هاتف واحد وسط المنزل يطلع غالبية أفراد الأسرة على المكالمات الصادرة والمستلمة، من المنزل واليه، أصبح الآن لكل فرد هاتف خاص به، يحمله معه

[١] لنتون، رالف، المصدر السابق، ص٤٥٣.

[٢] المصدر نفسه، ص٤٥٤.

أينما ذهب وأينما يكون، وبحرية كاملة عند أغلب الأفراد ذكورا وإناثاً ولمختلف الاعمار، وقد أدى هذا الوضع إلى انعكاسات سلبية أكثر منها ايجابية. ومنها إهمال الشباب وتراجع الرغبة في القراءة مما يؤدي إلى خفض الانجاز الدراسي بسبب انشغالهم بشكل مبالغ فيه، ولاسيّما الرسائل القصيرة والنغمات وغيرها أكثر من اهتمامهم بالجانب الدراسي[١]. وكذلك أدى إلى تقليل الساعات التي ستنصرف في المطالعة والتحصيل المعرفي وانجاز الواجبات الدراسية المناطة بالفرد، فتنعكس على الفرد نفسه في إهماله لدروسه والتي تؤدي إلى رسوبه[٢]. فضلاً عن إثقال كاهل رب الأسرة بإنفاق رصيد إضافي من الدخل الشهري لها وذلك في شراء بطاقات تعبئة الرصيد والصيانة، في ظل ارتفاع نسبة البطالة وضعف فرص العمل داخل المجتمع. حتى أصبح الهاتف مصدر إزعاج للكثير من الأسر، ولاسيما الهاتف المتحرك ذي الكاميرا، الذي يثير القلق والخوف من انتشار صور الفتيات دون علمهن، فضلا عن ميول المراهقين الشباب إلى مشاهدة هذه الصور الجنسية وإرسالها إلى الآخرين بعد سحبها من مواقع الانترنت. فينتشر هذا اللون بين فئة كبيرة من الشباب، ويؤدي إلى إشكاليات وانحرافات سلوكية وأخلاقية بينهم. أما من ايجابياته فان معظم الاعمال أصبحت تتم من خلال هذا العنصر مما يؤدي إلى توفير الجهد والوقت. فضلاً عن أهميته في اطمئنان الأسرة على أبنائها في ظل تردي الوضع الأمني في المجتمع.

الشبكة المعلوماتية Internet:

أما الأداة الأخرى التي لا تقل أهمية عن سابقاتها فهي الحاسوب Computer والذي يرتبط بالشبكة المعلوماتية Internet، وهو عنصر ثقافي مهم، لأهميته في الحياة الاجتماعية اليومية، إذ أصبح لغة العصر بعد ان تحول العالم إلى قرية صغيرة يستطيع الفرد فيها الدخول إلى أي مكان وفي أي زمان، وتأتي أهميته أيضا في هذه المرحلة من خلال غياب رقابة الحكومة وسيطرتها على قسم من المواقع بسبب الاحتلال، وسيطرته على القرار في اغلب مؤسسات الدولة.

ان دخول الانترنت إلى المنازل ولاسيّما غرف النوم وما يرافقه من سوء اختيار للمواقع لبعض فئات المجتمع، سيفسح المجال ويزيد من فرص التفكك الأسري والانحراف بعد ان أصبح أرضاً خصبة لذلك وخصوصا من شريحة الشباب لما لهم من دور واثر كبير في المجتمع. وهذا بالتأكيد نتاج انهيار السلطة السابقة وضعف أداء المؤسسات الحالية، منها الأسرية والسياسية

[١] الدليمي، عبد الرزاق، محمد، الإعلام والعولمة، مكتبة الرائد العلمية، عمان، ٢٠٠٤، ص٣٢.

[٢] حسن، محمود شمال، نحن والبث الفضائي، مجلة دراسات اجتماعية، دار الكتب والوثائق في بيت الحكمة، بغداد، السنة الأولى، حزيران، ١٩٩٩، ص٩٧.

والاقتصادية والأمنية بسبب سيطرة الاحتلال. فضلاً عن التأثير الكبير للغزو الثقافي الموجه إلى المجتمعات العربية والإسلامية وبعض القوى، منها الغربية والصهيونية لطمس ثقافتنا وتغييرها.

ومن جهة أخرى، ان هذا الوضع لا يخلو من الايجابيات، فإننا نرى إقبالا واسعا على ارتياد مقاهي الانترنت وبإعداد كبيرة ولمدد زمنية طويلة نسبيا، للإفادة العلمية والأكاديمية في المطالعة وكتابة البحوث والرسائل والاطاريح الجامعية وغيرها مما يعمل على رفع الكفاءة العلمية في مختلف التخصصات، وبذلك يكون الاقتباس الثقافي عملية اقتصادية توفر الجهد والوقت لإشباع الحاجات الإنسانية.

ان تحطيم الانعزال الحضاري يتبع عاجلا أو آجلا بميل نحو الحياة الدنيوية وظهور النزعة الفردية[١]. فعندما خرج مجتمعنا من عزلته ودخلت وسائل الاتصال إليه دخولاً كبيراً وعلى نحو مفاجئ بدون مراحل تمهد لاستقبال العناصر الثقافية القادمة، جعلت من الأنانية والفردية والمادية والانتهازية هي السمة السائدة في المجتمع، ويتجلى ذلك في سعي أفراد الأسرة إلى اقتناء العناصر الثقافية المادية بشكل فردي، كل له أدواته وأجهزته الخاصة به. وهذه خاصية لم تكن موجودة في الأسرة نوعا ما في السابق قبل الاحتلال.

وصفوة القول إنّ أي خلل يصيب أنساق البناء الاجتماعي للمجتمع فانه حتما سيؤثر في الوضع الثقافي للبناء. فإذا ما خضع نظام جماعة اجتماعية ذات حضارة لها تقليد الاكتفاء الذاتي لاحتلال عسكري فإنها تصبح ذات قابلية كبيرة في اقتباس العناصر الحضارية، وحينئذ تضعف القوى التي كانت تقاوم التبدل الناتج عن الاقتباس. وكذا يمكننا ان نلاحظ ان الأفراد الساخطين والقلقين في مجتمعات متماسكة يكونون أكثر استعدادا لتقبل الطرازات الغريبة[٢]. وهو ما ينطبق على شرائح معينة من الساخطين على سياسات النظام السابق في الحد من دخول التقنيات ووسائل الاتصال بالعالم الخارجي والاطلاع على ما يحدث فيه من تقدم وتطور.

ثانياً: ثقافة الملبس:

بعد دخول العناصر الثقافية المادية واقتباسها واستخدامها من فئات عديدة من أفراد المجتمع، أدى ذلك إلى بروز العديد من المظاهر، منها ما يتعلق بالمظهر الخارجي للأفراد، من ثقافة الملبس التي تشمل نوعية الملابس وشكلها وتسريحة الشعر والسلاسل والقلائد التي توضع في معصم اليد أو

[١] كلاكهون، كلايد، المصدر السابق، ص١٠٩.

[٢] المصدر نفسه، ص١٠٣.

حول الرقبة، فضلا عن النظارات الشمسية بألوانها الغريبة. ان حداثة الفكرة هي التي تحدد رد فعل الشخصية تجاهها، فهي قد تضيق أو تتسع، وقد تضمنت حركات اجتماعية Social movements أو تقاليع أو بدعاً في الملبس[١]. وان ما يشاهده ويطلع عليه الأفراد من خلال وسائل الإعلام ومن مجتمعات وثقافات مختلفة يؤدي إلى تفاعل الثقافات وينتج عنه اقتباس ثقافي لبعض الطرازات الثقافية. وان اقتباس اللباس الغربي يعبر عن عملية صهر ثقافية Cultural assimilation[٢]. وتعني عملية التبني والتذويب التي تحصل لبعض السمات الثقافية المستعارة من ثقافات غير التقليدية[٣].

ونرى مظاهر كثيرة فيما يتعلق بالمظهر الخارجي للأفراد ونمط ملبسهم في واقعهم اليومي الذي لم نعتد عليه في السابق، وفي حقيقته هو اقتباس ثقافي من ثقافات غريبة عن واقع ثقافة مجتمعنا، فلم نكن نرى مثلاً، رجل الأمن يضع النظارة الشمسية السوداء بتسريحته الغريبة مقلداً رجال المارينز واضعاً مسدسه على فخذه فيذكرنا برعاة البقر (الكاوبوي) ولَفُّ جبينه بقطعة قماش يُذكرنا بقراصنة البحر، ونراه معلقا بندقيته على رقبته موجهة إلى المواطن متخذاً هيأة المهاجم، بشكل نراه عند الجيوش المحتلة فقط وخصوصا الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، ومرتديا زي الجيش المحتل بلونه وطرازه. ونرى مظاهر كثيرة ومتنوعة عند الآخرين منها تسريحة الشعر فهناك من جعلها طويلة إلى مابين الأكتاف مع ربطها وتصفيفها بشكل نسائي خصوصاً عند الرياضيين والفنانين، مع وضع كميات كبيرة من الكريم الملمع وبشكل مفرط مع إطالة الزلف وحلق الشارب وإبقاء رسم خفيف من اللحية فقط تحت شفة الفم السفلى، وارتداء الملابس الضيقة ذات الألوان البراقة مع الأحذية ذات الشكل واللون الغريب، وهذا كله اقتباس من البرامج التي تبثها الفضائيات مثلاً (ستار أكاديمي)•. وعليه فان المرء قد يتعذر عليه تفريق الذكر من الأنثى وذلك للتشابه الكبير في المظهر الخارجي لهما. أما ما يخص الإناث فنرى الألوان البراقة في الملابس الضيقة والشفافة مع شيوع ارتداء البنطال ذي اللون الفاتح الذي يثير الانتباه في منطقة حساسة من الجسم، مع ارتداء بلوز مطاط (بودي) الذي يبرز مفاتن الجسم بشكل مثير في المؤسسات في أثناء الدوام الرسمي، تحت فهم خاطئ لمفهوم الحرية. فكيف يجتمع ارتداء البنطال الضيق مع غطاء الرأس (الحجاب)؟ وكيف يكون ارتداء

---

[١] عودة، محمود، أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي، ذات السلاسل للنشر والتوزيع، ط٢، الكويت، ١٩٨٩، ص١٨٣.

[٢] معتوق، فريدريك، معجم العلوم الاجتماعية، اكاديميا، بيروت، ١٩٩٨، ص١١٤.

[٣] المصدر نفسه، ص١١٥.

• برنامج يبث على قناة LBC اللبنانية. حيث يظهر فيه مجموعة من الشباب من بلدان عربية مختلفة في عمر المراهقة من الذكور والإناث يعيشون الحرية المطلقة بالاختلاط بين الجنسين في منزل واحد وغرف مشتركة. وتخصص جائزة للفائز الأول، والفائز هو من يؤدي الدور بعمق وعفوية.

الجلباب مفتوحا مع إظهار البنطال والقميص الضيق؟ مع ألوان صارخة في التبرج. كل هذه الطرز الثقافية في حقيقتها ثقافة هجينة مقتبسة لا تمت إلى ثقافة مجتمعنا بشيء.

ان هذا في حقيقته يمكن ان يكون إحلالاً حضارياً Cultural substitution إذ تحل سمة محل سمة أخرى بشكل جزئي أو كلي، وهي عملية تغير حضاري لأنها نتيجة حتمية للانتشار أو الاختراع أو التأثير الحضاري[١]. وتعد أيضا امتزاجاً ثقافياً Acculturation تنتقل بها الثقافة من خلال اتصالات مستمرة مباشرة بين جماعات ذات ثقافات مختلفة[٢].

ان ما نراه من مظاهر الاقتباس الثقافي، إنما هو تقليد أعمى يكون على شكل التقليد الببغائي، بالشكل لا بالمضمون لعناصر ثقافية غير منتقاة تبعا لفائدتها الأخلاقية والقيمية والحضارية.

ثانياً: مظاهر الاقتباس الثقافي في الجانب المعنوي:

ان الحضارة لها جانبان، مادي ومعنوي، فإذا حصل في احدهما تغير فانه سيؤثر في الجانب الآخر بشكل مباشر أو غير مباشر.

ان دخول العناصر الثقافية المادية واقتباسها بسرعة تعد نسبياً أسرع من الأفكار والسلوكيات، وهذه ستترك أثراً في نظم القيم والسلوك لاحقاً مهما اختلفت المدة الزمنية لذلك. فبعد أربع سنوات من الاحتلال يرافق ذلك ضعف واضح في الضبط الاجتماعي داخل المجتمع، من الطبيعي ان يحدث اقتباس في الجانب المعنوي تبعا للتغير في الجانب المادي الحاصل بالاقتباس والاستعارة. وقد شاهدنا في واقعنا الاجتماعي اليومي قيماً وسلوكيات تعد غريبة نوعا ما، على الرغم من المسوّغات والأسباب المنطقية وغير المنطقية لذلك. وقد يبدأ التقبل الاجتماعي بفرد أو جماعة فرعية ثم تبدأ بالانتشار أو التوسع حتى تصبح جزءاً من ثقافة فرعية لمجتمع محلي أو جماعة فرعية[٣]. ويمكن ان يعارض كبار السن وأصحاب المصالح التقليدية الجديدة إذا هددت عاداتهم العقلية المستقرة[٤].

السلوك:

---

[١] سليم، شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص٢٢٩.

[٢] بدوي، احمد زكي، المصدر السابق، ص٦.

[٣] بيومي، محمد احمد، المصدر السابق، ص١١٩.

[٤] غيث، محمد عاطف، المصدر السابق، ص٢٨٤.

ان هذا الوضع خلق لنا سلوكيات نابعة من تغير في منظومة القيم التي تشكل جزءاً من النسيج الاجتماعي والثقافي للمجتمع. ومن مظاهر السلوك الغريب نسبيا انه في السابق كانت الأم أو البنت داخل المنزل تتحرج من القيام بإجراء اتصال هاتفي أو الرد على المكالمات، ولاسيما عند وجود الأب أو الأبناء الكبار، أما الآن فان رب الأسرة هو الذي يبادر بشراء الهاتف، بل أصبح لكل منهن خط هاتف خاص بهن. أي ان غالبية الإناث في الأسرة أصبحن يمتلكن هاتفاً نقالاً، ومنهن الموظفات الطالبات وربات البيوت، تحت دواعي الاطمئنان على سلامتهن خارج المنزل بسبب عدم استتباب الأمن داخل المجتمع•. فأين الأب والأخ من الزوجة أو البنت التي لديها هاتف نقال ذي الكاميرا والذي يرسل الصور ويخزنها من الانترنت بما فيها الصور المخلة بالآداب والأخلاق في عزلتهن داخل غرفهن، وهذه العملية لها فرص كبيرة بسبب حرية استخدام هذا الجهاز في الغرف أو الأماكن التي ينفرد بها الشخص وهذا ينطبق كذلك على أفراد الأسرة من الذكور ويعبر عنه في سلوكيات التحرش والمعاكسة.

ومن المظاهر السلوكية أيضا قيام الأفراد باستخدام الهاتف النقال في الأماكن العامة كالشارع والأسواق ودور العلم والمؤسسات الأخرى، خصوصاً من الإناث لان نظامنا الاجتماعي قد يكون حكمه سلبياً وقاسياً عليهن، وان التحدث في الهاتف في مكان عام وبصوت مسموع للآخرين من قبل الفتيات والنساء، هو سلوك غير مقبول من أغلبية أفراد المجتمع. لان طبيعة التنشئة الاجتماعية وما تتضمنه من نمط القيم والعادات والتقاليد التي تضبط مثل هذه السلوكيات ترفضها على الأغلب••. وكذلك فان الاستماع إلى النغمات وبصوت مرتفع يصل إلى حد الإزعاج وكأنه إذاعة متنقلة فهو سلوك لم يكن موجودا في السابق قبل الاحتلال، ووصلت إلى بعض الانتهاكات مثلا في أروقة الكليات وداخل المساجد وفي الأزقة والمحلات التجارية وغيرها، من دون وضع أي اعتبار أخلاقي لهذه المناطق، بل ووصلت إلى قاعات الدراسة في الجامعات والمعاهد والمدارس. وهو ما يعكس اقتباس شكل العنصر الثقافي دون مضمونه ووظيفته الحقيقية التي اخترع من اجلها إلا وهي المساعدة في قضاء حاجات الأفراد، دون استخدامه استخداماً سيئاً ومفرطاً في غير وقته ومكانه. وكل ذلك من أهم أسبابه غالبا هو العزلة الاجتماعية والثقافية للمجتمع قبل الاحتلال، وكذلك الفهم الخاطئ لمفهوم الحرية الشخصية وحرية الرأي والتعبير والديمقراطية وحقوق الإنسان التي صدرت إلينا، في واقع مرير تنتهك فيه المقدسات والمحرمات على أيدي دعاة الحرية وحقوق الإنسان.

• مقابلة مع أستاذ الانثروبولوجيا الثقافية المساعد موفق ويسي محمود رئيس قسم علم الاجتماع في كلية الآداب في جامعة الموصل.

•• مقابلة مع الدكتور خليل محمد الخالدي أستاذ علم الاجتماع المساعد في قسم علم الاجتماع في كلية الآداب في جامعة الموصل.

ومن المظاهر السلوكية المقتبسة الأخرى مثلا عدم احترام قانون السير في الطرقات والشوارع وهذه الظاهرة شاهدناها عند قوات الاحتلال عند سيرهم باتجاه عكس السير وعبور الجزرات الوسطية والأرصفة. وهذا السلوك اقتبسته الأجهزة الأمنية العراقية فضلا عن سائقي المركبات المدنية الأخرى. وقد أدى هذا السلوك الخاطئ إلى حدوث الكثير من الحوادث المرورية ذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء من أفراد المجتمع، فضلاً عن امتعاض الكثير من الناس بسبب هذه السلوكيات التي تجسد الانتهاك القانوني والإنساني في هذا المجتمع منذ الأيام الأولى للاحتلال والى هذه اللحظة.

المفاهيم والمصطلحات:

وهناك مظاهر للاقتباس تجسدت على شكل مفاهيم ومصطلحات دخلت مع الاحتلال لم يعتد أفراد المجتمع عليها، بل لم يعرفها أيضا من قبل، ومن هذه المفاهيم مفهوم الإرهاب والعبوات الناسفة والمفخخات والفيدرالية والانتحاريين والمتمردين والمسلحين والميليشيات وغيرها. فضلاً عن ذلك استخدمت بعض المفاهيم الأجنبية على واجهة المحلات التجارية كأسماء لها، مثل محلات (فودافون – موبايلنا – فلورنس للحاسبات – كارديا للطباعة – وVIP للأزياء) وغيرها من الأسماء التي اتخمت المدينة بها ولم تكن موجودة في السابق.

ومن مظاهر الاقتباس الثقافي في الجانب المعنوي هو إقبال الشباب على تقليد ما يحمله من يظهر على الفضائيات من مطربين وممثلين في ملابسهم وتسريحاتهم وطرائق حديثهم وسلوكياتهم، على الرغم من أنهم يميلون إلى الأنوثة بالنسبة للذكور ويميلون إلى الذكورة بالنسبة للإناث. واقترنت بعض الأشياء بأسمائهم مثل (عصير كوكتيل نانسي عجرم).

ونستشف من مظاهر الاقتباس الثقافي في المجتمع الموصلي وبجانبيه المادي والمعنوي، ان هناك شرائح تضم من وظف هذه العناصر الثقافية بعد اقتباسها وسخرها بشكل يعكس عمق تاريخنا وحضارتنا. فقد واجه الغزو الأجنبي العسكري والثقافي من خلال اقتباسه الأنماط الثقافية المصدرة إليه وذلك لمواجهة هذا الاتجاه. حيث أوجد تأثيرا حضارياً معادياً Antagonistic culturation عند تبني حضارة ما، سمة حضارية من حضارة معادية لمقاومة اعتداءاتها بصورة اشد فاعلية وتأثيرا[١]. وتشكلت مقاومة حضارية Cultural resistance وهي مقاومة حضارة معينة، من بعض السمات والمركبات الحضارية الغريبة عنها ورفضها لها بعد تبنيها[٢]. بحيث استطاعت هذه الشريحة

[١] سليم، شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص٥٥.

[٢] المصدر نفسه، ص٢٢٩.

من المجتمع اقتباس عناصر ثقافية تعود للعدو ووظفتها بقصد مقاومته ومنها الانترنت والهاتف النقال والقنوات الفضائية(الستلايت). أي كما فعل الهنود الحمر في الولايات المتحدة عندما استخدموا البندقية والحصان عند مقاومة اعتداءات البيض. وتجلى ذلك فيما يسمى اكتساب ثقافة الخصم Acculturation Antagoique في تبني المجتمع لسمة ثقافية من مجتمع آخر بقصد مقاومته مقاومة أكثر فاعلية[١]. وقد أثبتت هذه السلوكيات نجاحها في الواقع، عندما بدأ العدو يراجع مشاريعه وحساباته التي جاء بها، من خلال ازدياد الأصوات المطالبة بالانسحاب حتى وصلت إلى داخل حكومات الدول التي شاركت بالغزو فضلا عن انسحاب العديد من الدول من العراق تباعاً. وأصبح لا يخفى على أي فرد مهما كانت خلفيته الثقافية والعلمية حقيقة المشاريع والأهداف الإستراتيجية للاحتلال. لان السلطة الأمريكية تقوم بالمساعدات المادية والمالية وتخصص جزءاً كبيراً لنشر الثقافة الأمريكية، بما يمهد لزحف المصالح الأخرى[٢]. واتضح هذا أمام غالبية أفراد المجتمع ولم يعد يخفى على أحد مصدر تصدير هذه الأنماط على اختلافها وتنوعها إلى مجتمعنا.

النتائج والتوصيات

أولا: النتائج

لقد توصل البحث إلى نتائج عدة، لعل أبرزها يتجلى فيما يأتي:

١. ان المجتمع الموصلي شهد ظواهر عديدة إبان الاحتلال ومنها ظاهرة الاقتباس الثقافي.
٢. برزت مظاهر للاقتباس الثقافي في المجتمع الموصلي وعلى الجانبين المادي والمعنوي.
٣. ان التنظيم الاجتماعي للمجتمع الموصلي تعرض إلى عمليات تغيير ظهرت بوضوح على السطح الاجتماعي والثقافي، وفي نسيجه وتنظيمه.
٤. انتشار الكثير من العناصر الثقافية الغريبة وانتقالها ودخولها على نمط ثقافة مجتمعنا.
٥. قيام شرائح من المجتمع باقتباس طرز ثقافية جاءت بعد الاحتلال.
٦. قيام فئات من المجتمع باستخدام العناصر المقتبسة وتوظيفها في مواجهة القوى الغازية للمجتمع بقصد إخراجه وطرده.

---

[١] بدوي، احمد زكي، المصدر السابق، ص٦.

[٢] الخشاب، احمد، المصدر السابق، ص٢٨٥.

٧. تباين هذا الاقتباس من حيث الكم والنوع بين أفراد المجتمع.
٨. ان العوامل التي تؤثر في عملية الانتشار والاقتباس الثقافي قد اجتمع اغلبها في واقع مجتمعنا ومنها الاحتلال والهجرة ووسائل الاتصال.

ثانياً: التوصيات

١. الدعوة لإنهاء الاحتلال بمظاهره وتبعاته كافة.
٢. محاربة مظاهر الاقتباس الثقافي المادي والمعنوي كافة والتي تتقاطع مع ثقافتنا وقيمنا وديننا.
٣. توعية الشباب بمخاطر الغزو الأجنبي وأضراره، ولاسيما الغزو الثقافي الموجه والهادف إلى طمس هويتنا وتغييب ثقافتنا.
٤. تبصير المجتمع بعمقه الحضاري وقدرته على الإبداع والعطاء، بوصفه مركزا حضاريا على مر العصور.
٥. إجراء ندوات وحلقات نقاشية في دور العلم والفضائيات لتبيان مخاطر الغزو الثقافي.

المصـادر

الكتب:

١. بيومي، محمد احمد، الانثروبولوجيا لثقافية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، ,١٩٨٣

٢. الخالدي، خليل محمد، خصائص المجتمع الموصلي، مركز دراسات الموصل، جامعة الموصل، ٢٠٠٦.

٣. الخشاب، احمد، دراسات انثروبولوجية، دار المعارف في مصر، المكتبة الاجتماعية، ,١٩٧٠

٤. الدليمي، عبد الرزاق محمد، الإعلام والعولمة، مكتبة الرائد، عمان، ,٢٠٠٤

٥. رابي، عبد الله مرقص، التحضر في لموصل، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة بغداد، ,١٩٩٥

٦. الساعاتي، سامية، الثقافة والشخصية، مركز الكتب الثقافية، ط٢، مصر، ,١٩٨٣

٧. شابيرو، هاري، نظرات في الثقافة، ترجمة د.محمد العريان، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة–نيويورك، ,١٩٦١

٨. الصوفي، احمد، خطط الموصل، ط٢، مطبعة الاتحاد الحديثة، الموصل، ,١٩٥٣

٩. عودة، محمد، أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي، ذات السلاسل للنشر والتوزيع، الكويت، ط٢، ١٩٨٩.

١٠. غي، روشيه، مدخل إلى علم الاجتماع العام، تعريب مصطفى دندشلي، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، ,١٩٨٣

١١. غيث، محمد عاطف، علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤.

١٢. كلاكهون، كلايد، الإنسان في المرآة، ترجمة د.شاكر مصطفى سليم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد–نيويورك، ,١٩٤٩

١٣. لنتون، رالف، دراسة الإنسان، ترجمة عبد الملك الناشف، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت –نيويورك، ,١٩٦٤

١٤. مصطفى، فاروق محمد، الانثروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤.

١٥. النوري، قيس، مدارس الانثروبولوجيا، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩١.

القواميس والمعاجم:

١. بدوي، احمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.

٢. سليم، شاكر مصطفى، قاموس الانثروبولوجيا، جامعة الكويت، ,١٩٨١

٣. معتوق، فريدريك، معجم العلوم الاجتماعية، أكاديميا، بيروت، ١٩٩٨.

المجلات:

١. حسن، محمود شمال، نحن والبث الفضائي، مجلة دراسات اجتماعية، دار الكتب والوثائق في بيت الحكمة، بغداد، السنة الأولى، حزيران، ,١٩٩٩

٢. النجار، باقر سليمان، الثقافة وتحدياتها في الخليج العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٨٤، ٢٠٠٢.

Manifestations of cultural quotation in Iraqi society during the American occupation
Sociological anthropology study in the city of Mosul

Assistant Lest. Hareth Ali Hassan

Abstract:
Every society has its own culture, whatever its form, type and nature. It represents the pattern of behavior in his social life. It consists of everything that a person made wherever he is, whether material or moral, and closely related to human needs, and these needs, despite their diversity, diversity and multiplicity, are subject to the phenomenon of change, which is the law of existence. So, the components of culture do not remain in a static state, rather they are in a dynamic mode, due to many internal and external factors that cause society to issue and quote material and moral cultural patterns.